

السرد النسوي

محمد بلعزوقي

جامعة البليدة2

ملخص:

تتحدث هذه الورقات عن السرد الذي تكتبه المرأة؛ نود أن نبيّن فيها مضامين هذا السرد ونميط اللثام عن القيم والأيدولوجيات المضمرّة والكامنة وراءه من خلال الإجابة عن الإشكاليات المحورية التالية:

1- ما الفرق بين السرد النسائي والسرد النسوي؟

2- ما المضمرات التي تتوارى وراء الخطاب النسوي السردى؟

3- كيف ينظر المتلقي لهذه المضمرات أولا؟ ولهذا الخطاب ثانيا؟

هذه الإشكاليات دار حولها في النقد العربي المعاصر جدل واسع، ينطلق من المفهوم في حد ذاته، وصولاً إلى واقعية وجود أدب مختلف، يقف قبالة أدب رجالي، هو الأدب النسوي.

توطئة:

يعدّ البحث في أمر السرد العربي أمراً شائكاً وعسيراً، نظراً لتضارب الآراء والتباسها حوله فعُلبت مرجعيات ثقافية وفكرية على أخرى وذكرت أسباب نشأة وطمست أخرى، ولهذا يصعب تحديد الأصول التاريخية الدقيقة لنشأة السرد العربي كفن أدبي. فالقارئ العربي اكتسب وعياً بمسار الشعر العربي مند زمن بعيد وفي المقابل حُرّم من معرفة السرد الذي مثل المخيال العربي الإسلامي¹ على الرغم من أن العرب أمة سرد وليس ثمة جنس أدبي أكثر حضوراً في الثقافة العربية ماضيها وحاضرها مثل السرد، غير أن المسلمات القائمة تنص على أن الشعر هو الغالب، وهو ديوان العرب.

يرى عبد الله إبراهيم بوجوب تفكيك هذه المسلمات لأن الشعر من العصر الجاهلي إلى يومنا هذا لا يمثل سوى جزء من النشاط الثقافي الأدبي، في مقابل تلك المرويات التي تمثل مدونة هائلة ممثلة بأنواع أساسية و أخرى ثانوية -حسبه- منها: الحكايات الخرافية والسير الشعبية المقامات والسير الموضوعية والسير الذاتية والنوادر والطرف وقصص الحيوان ومرويات الاسراء والمعراج وقصص الأنبياء و الإسرائيليات وحكايات الارتحال وأخبار البخلاء والمكدين واللصوص، والظراف والمتطفلين والصعاليك و العميان والمجانين والعشاق و الزهاد والنسك و القصاص والمحدثين وقصص العجائب والغرائب. وكل هذه الأنواع قوبلت بالتهميش، وأحيانا الرفض لأنها لا تخضع للمعايير والشروط القائمة في الفكر الديني أو اللغوي السائد².

يمكن أن يعود سبب الوهم القائم بأن العرب أمة شعر لا أمة سرد إلى ذلك الاهتمام الذي أولاه الخلفاء والحكام للشعر في مجالسهم ومكافأتهم عليه وتشجيعهم لقائله.³ وفي المقابل أهمل السرد لابتعاده عن مثل هذه المجالس الهامة.

كما يمكن أن نظيف هنا سببا آخر لهذا الوهم هو كثرة شعر العصر الجاهلي الذي وصلنا وأهميته، وقلة النثر وتهميشه، فتوهم الدارسون أن الشعر أهم من النثر، وإنما الصواب هو أن الشعر حفظ والنثر دَرَسَ، لأن الأول سهل الحفظ وأقرب إلى النفوس أمّا الثاني فيصعب حفظه. لكن في عصرنا هذا برزت الرواية بشكل جلي، و ما يهمننا في موضوعنا هذا هو ماتكتبه المرأة أو ماله علاقة مباشرة بها، لذلك سنعالج هذا الموضوع وفق العناصر التالية:

1- السرد و كتابة المرأة:

قد برز السرد في العصر الحديث بصفة ملفتة للنظر؛ فقد ظهرت القصة والأقصوصة والرواية وهذه الأخيرة تكاد تغطي معظم النتاج الثقافي والأدبي

المعاصر، وهي أدب هذا العصر وديوانه، فقد أصبحت الرواية هي من يحكم العالم بأسره، لما نراه اليوم من تأثير في المجتمعات بواسطتها، وحتى تلك السلطة التي تملكها الأفلام والمسلسلات ماهي في الواقع إلا قصصا أو روايات مُمثلة. ومن هذا المنطلق اغتنمت المرأة هذا الجانب؛ فحاولت الاستفادة من السرد لأجل التعبير عن حالاتها وتجاربها، هذا لا يعني أن المرأة ليس لها من الأدب إلا الجانب السردى، بل لدينا شاعرات عربيات كثرات من أمثال الخنساء و خولة بنت الأزور ورابعة العدوية في عصورنا الشعرية الأولى ، وفي عصرنا هذا لدينا من الجزائر ربيعة جلطي ونسيمة بوصلاح، ومن العراق نازك الملائكة و أمال الزهاوي، ومن لبنان مي زيادة وجمانة حداد و غيرهن كثير فهذا فيض من غيظ، و لدينا من الناقدات خاصة في عصرنا هذا ما ينم عن المشاركة الفاعلة للمرأة في المجال النقدي الأدبي ومن أمثلتهن عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) و يمنى العيد و أمل التميمي و رضوى عاشور و سيزا قاسم ، القائمة طويلة و المقام لا يسمح بتعدادهن.

جعلت المرأة السرد مطية من أجل محاولة تغيير ما يجب تغييره في نظرها، ففي سبعينات القرن الماضي ظهرت دعوة شديدة اللهجة في العالم الغربي إلى الأدب النسائي فكانت سببا في ظهور الحركات والجمعيات النسائية التي تدافع عن حقوق المرأة في شتى المجالات، وهذه الحركات أفرزت كاتبات وأديبات أطلق على ما كتبه "أدبا نسائيا"⁴ واتسعت هذه الحركة لتشمل العالم العربي.

ظهر السرد النسوي كظاهرة أدبية ملفتة للانتباه أسالت الكثير من الخبر واستقطبت اهتمام الباحثين والمثقفين، خاصة بعد النجاح الذي حققته بعض الروايات العربيات من أمثال غادة السمان ونوال السعداوي وأحلام مستغانمي ورجاء عالم ورضوى عاشور وغيرهن، نود أن نبين هنا مضامين هذه السرود ونميط اللثام عن القيم والأيدولوجيات المضمرة والكامنة وراءها.

2- ماهية السرد النسوي:

إن الحديث عن أدب نسائي هو حديث يشوبه الكثير من الغموض، فقد تضاربت الآراء حول وجوده أولاً، ثم حول إعطائه مفهوماً دقيقاً يضاف من خلاله لحقل الأدب المعاصر ثانياً، وإن هذا الأخير هو أمر عسير المنال، فالسرد النسوي قد ينظر إليه الباحث من عدة زوايا؛ فيتساءل:

- هل السرد النسوي هو ما تكتبه المرأة؟

- أم هو السرد الذي يُكتب عن المرأة؟

- أم هو ذلك السرد الذي تقرأه المرأة؟

على الرغم من أنّ -حسب النقد النسوي- كل منظور من هذه الثلاثة يعتبر قاصراً عن استيعاب كل ما يمكن لأدب المرأة أن يقدمه من رؤى وأفكار وأيديولوجيات.

إن التأصيل لهذا النوع من السرد وإزالة الغموض المفهومي الذي يكتنفه "رهين بمدى قدرتنا على تحديد بعده النوعي، وتجسيد أهم خصائصه البنيوية، وملاحه من داخل نظرية الأدب، وليس من خارجها".⁵

يُنكر الكثير من الباحثين هذا الفصل بين أدب وأدب لمجرد أن الأول يكتبه رجل والثاني تكتبه امرأة حتى وإن اختلفت مضامينهما، فالأدب واحد وإن اختلف كاتبوه مادام يعبر عن هوية واحدة.

تذهب "ماري إيجلتون" إلى أنه من الخطأ أن نعتبر رواية ما نسوية لمجرد أن المرأة تكتبها؛ فهناك العديد من الروايات الرومنسية التي تكتبها المرأة إلا أنها لا تستجيب لخصائص الأدب النسائي، كونها مجرد فتازيا تركز على بطلة محاطة بأوهام عاطفية قريبة من صورة البطلة السينمائية، كما ترى أنه من الخطأ كذلك أن نصنف العمل الأدبي على أنه أدب نسائي لمجرد أن المرأة تُقبل على قراءته و دليلها على ذلك هو ذلك الأدب الذي يذم و ينقص من شأن المرأة و مع ذلك تُقبل على قراءته⁶ و هذا الكلام يخفي تحته إيديولوجيا المرأة في نظرتها إلى الأدب الذي يخصّها و هو ذلك الأدب ذو المضامين التي ترفع من شأنها و تدافع عن حريتها و لا تصنفها بالعيب و النقصان.

هذا يدفعنا لأن نقر بصعوبة التفريق بين ما يكتبه الرجال وما تكتبه النساء " لأن ما يمكن أن نزعّم أنه خاصية في الكتابة النسائية، يمكن أن نعثر له على نظير في الكتابة الرجالية و العكس صحيح"⁷.

3- السرد النسوي و السرد النسائي:

يثبت البعض الآخر من الباحثين وجود أدب تكتبه المرأة قد تنوعت مضامينه ومواضيعه ومجالات اهتمامه بتنوع مناحي الحياة اليوم وما تفرضه من تغيرات سريعة سرعة هذا العصر لأنها - كما أسلفنا الذكر- تهدف إلى التغيير بالإضافة إلى التعبير عن التجارب والحالات التي تعيشها المرأة. ولكن يرى بضرورة التفريق فيه بين أدب نسائي وأدب نسوي، كما فعل الكاتب رضا الظاهر في كتابه "غرفة فرجينيا وولف"، دراسة في كتابة النساء" حين فرق بين مفهوم "الكتابة النسائية" ومفهوم "الكتابة النسوية" فاعتبر الأول ما تكتبه النساء ويعبر عن نظرتها للمواضيع العامة الإنسانية التي تهتم الجنسين. أما المفهوم الثاني فيعني عنده تلك الكتابة التي تعالج قضايا نسوية سواء كانت هذه الكتابة من ابداع امرأة لأسباب معروفة ومبررة، أو من إبداع رجل وهي نادرة.⁸

وهذا ما ذهبت إليه كذلك د. شيرين أبو النجا في كتابها "نسويّ أو نسائيّ" فطرحت إشكالية التمييز بين المفهومين فرأت بوجود التمييز بين مفهومي نسوي ونسائي في الإنتاج الإبداعي الأدبي للمرأة، لكي لا يتم تصنيف ذلك الأدب على أساس هويّة منتجته الجنسية و لهذا « تلزم التفرقة دائما بين نسويّ (أي وعي فكري ومعرفي) ونسائيّ (أي جنس بيولوجي) »⁹.

وذهب إلى ذلك الناقد العراقي "عبد الله إبراهيم" لكن بإعطاء تفاصيل أكثر، فقد كان دقيقا في رصد أهم الخصائص التي تميز الأدب النسوي؛ فرأى أن السرد النسائي سرد تقوم به المرأة بعيدا عن فرضية الرؤية الأنثوية للعالم والحياة إلا بما يتسرب منها بعفوية، وهو نوع قد يشبه سرد الرجال من حيث الموضوعات والقضايا المطروحة، التي تدعو إلى القيم الإنسانية المشتركة، التي

هي مطالب الجنسين على حد سواء؛ فهي قضايا عامة لا تخص المرأة وحدها بل تخص الإنسان عموماً¹⁰.

وهذا ما تثبته الكاتبة والروائية آسيا جبار بقولها: "أكتب ضدّ الموت، أكتب ضدّ النسيان. أكتب على أمل أن أترك أثراً ما، ظلاً، نقشاً في الرمل المتحرك، في الرماد الذي يطير وفي الصحراء التي تصعد..."¹¹. كلامها هذا تعبير عن التزام بالإنسان وتطلّعاته وهمومه وهي هذه النزعة الإنسانية بالذات ما طبع نتاجها المتعدّد. ونتاج بعض الروائيات من أمثال زهور ونيسي في روايتها "يوميات مدرسة حرة" التي صدرت سنة 1979م وهي أول رواية جزائرية نسائية صادرة باللغة العربية.

قد توالى أعمال آسيا جبار الروائية، من رواية "العطش" إلى رواية: "بعيداً من المدينة"، "نافذة الصبر"، "الحب الفانتازيا أو ظلّ السلطان"، "شاسع هو السجن" و"ليالي ستراسبورغ"... في هذه الروايات تروي الكاتبة أيضاً جزءاً من سيرتها وسيرة بلدها، وتستند إلى التاريخ كأحد العناصر الأساسية في بلورة أعمالها بدون أن تنتمي هذه الأعمال إلى صنف الرواية التاريخية، على الرغم من أنها تنطلق من وقائع تاريخية ثابتة ومحددة؛ كما في كتابها "أبيض الجزائر" التي تحكي فيه عن مشكلات اللغة المطروحة داخل الجزائر والتي تعمّقت بفعل مرحلة الاستعمار. وهي تعي هذه المسألة تماماً.

من هنا كان موضوع اللغة من المواضيع التي شغلت الكاتبة طوال مسيرتها الإبداعية. ولقد عبّرت عن هذا الهاجس في مناسبات عدة لا سيما في البرلمان العالمي للكتاب وهي من أعضائه منذ تأسيسه عام 1994، حيث قالت إنها "دائمة الانشغال بمسألة التنوّع الألسني والثقافي في الجزائر وفي دول أخرى". أما السرد النسوي فهو تعبير عن حال المرأة وحاجاتها وأيديولوجياتها وثقافتها، ونظرتها للآخر وتحكّمها في نظرة الآخر لها، ومحاولة تغيير واقعها لأنه ليس محل رضى بالنسبة لها؛ وقد شكل هذا النوع من السرد

فضاء رحبا ومتنفسا عبّرت من خلاله المرأة عن خصوصيتها النفسية والفكرية وكشفت فيه عن رفضها لمختلف التصورات التقليدية الموروثة، التي طالما ظلت تنتقص من قيمتها وترسم لها حدودا لا تتعدى الهامش. لذلك يمكن تحديد ما تكتبه المرأة وتعريفه، وكيفية اتّصافه بالأنثوية من خلال النشاط الداخلي وليس الخارجي، "علاقة المرأة بالمرأة، علاقة الأم بالابنة، تجارب الحمل والوضع والرضاعة، والبيت..."

4- خصائص السرد النسوي:

تحدد هوية السرد النسوي استنادا إلى حضور أحد المكوّنات الثلاثة الآتية أو اندماجها معاً فيه، وهي:^{1 2}

أ. نقد الثقافة الأبوية الذكورية.

ب. اقتراح رؤية أنثوية للعالم.

ت. الاحتفاء بالجسد الأنثوي: فكان التوجه مركزا على "الانتقال إلى مرحلة اكتشاف الأنوثة بوصفها قيمة خاصة، والاحتفاء بالجسد كمكون أساسي من مكونات الهوية الأنثوية".^{1 3} فعلى السرد النسوي أن يصور الجسد الأنثوي حتى يعبر عن خصوصية وفرادة الأنثى ويعطيها هويتها.

فهذا المفهوم وهذه الشروط الثلاثة هي التي تبلور السرد النسوي وتحدد هويته وتكشف أسرارته، وعبد الله إبراهيم يعتبرها مفاهيم جديدة يروم ترسيخها؛ فيقول: "تطرقت إلى هذا التعريف في أكثر من مكان ومناسبة بهدف توضيحه وترسيخه كمفهوم جديد في النقد العربي الحديث"^{1 4}.

إنّ السرد النسوي يحاول إنصاف المرأة وإعادة الاعتبار لها وتمجيد محاسنها ورفع قيمتها في المجتمع والحياة، فظهر هذا السرد كنوع مضاد للسرد الرجالي يصارعه ويريد التغلب عليه وعلى تلك النظرة الذكورية المتعالية، التي كانت دائما تنظر إلى المرأة على أنها تابع لا متبوع، وأنها مصدر إلهام ومتعة، تكون دائما في خدمة الرجل، كما هو حال الجارية في الموروث الأدبي القديم، حتى

وإن سردت و حكت فإن سردها يكون من أجل متعة الرجل و تشويقه كما فعلت شهرزاد.

في هذا النوع من الأدب إنه لمن الضروري أن يعبر النص الأدبي عن التجربة الخاصة، التي تعكس واقع حياة المرأة بشكل صادق ذلك أن المرأة قُدمت لفترات طويلة بأنماط بعيدة كل البعد عن الحقيقة والواقع بواسطة نماذج أدبية مضللة إلى أبعد الحدود.¹⁵

إذا السرد النسوي يرفض هذا الوضع الأبوي الذكوري، ويريد رؤية أمومية أنثوية للعالم والحياة بصورة هستيرية، هذا ما أوقعها في شباك الذاتية والأنانية والرجسية المفرطة، ففي الغالب الاعم نجد السرد النسوي يظهر الفتاة في سن عنفوانها والمرأة في نضجها وحسنها مكثفيا بهذا الحد، غاضا الطرف عن مرحلة الشيخوخة؛ وكأنه سرد لا يقبل شيخوخة المرأة وقبحها، لأنه لا احتفاء وأنوثتها في هذه المرحلة كونها لا تمثل مركز جذب للآخر.

وقد عُدَّ الجسد أهم موضوعات السرد النسوي فـ"فرضية الأدب النسوي تقوم على تقريض الجسد الأنثوي وتمجيده والاحتفاء به، أو كشف تحولاته في ظل ثقافة قامعة لحيته أو منقصة لها"¹⁶

فالسرد النسوي يصور دائما المرأة بأنها ذلك المخلوق الرقيق، اللطيف، الضعيف الظريف، بينما يصور الرجل بأنه ذلك المخلوق المتسلط المتجبر العنيف، سواء أكان أبا أو أخا أو زوجا أو مسؤولا أو...

وحتى وإن وجدنا في الرواية النسوية اهتماما وتركيزا على الرجل وتقديم البطولة له؛ فإنها تحاول دائما أن تجعل فيه عيبا كالعقم أو الإعاقة أو القبح، فتُظهره ناقصا حتى تبدو هي كاملة، أو تلجأ إلى قتله لأتفه الأسباب، أو سجنه أو نفيه وإبعاده، كما نلاحظ ذلك في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، هذه التي نجدها تعلق على المستوى الذي وصلت إليه المرأة العربية بقولها: "لقد اتسمت الكتابة النسائية بطابع الثورة والإبداع، متخذة

نهجا نسائيا تكتسبه المرأة بذكائها الذي هو وليد غباء سابق" (نسيان ص 27)

يرى " عبد الله إبراهيم" أن هذه الثورة على السرد الذكوري والاحتفاء بالأنوثة لمجرد الأنوثة: "قد يضيفي إلى ظهور شخصية أنثوية خالدة؛ أي شخصية جامدة ومسطحة، لا تتغير بتغير الأحوال داخل العالم السردي الافتراضي؛ وهذا سيؤدي إلى جمود الرواية النسوية".^{7 1} وفي المقابل يعتبر أن السرد النسوي أكثر حيوية من السرد الرتيب الذي يكتبه الرجال.

و كثير من الروائيات أردن السرد النسوي لأنه قد يكسبهن الشهرة بالغوص في مناطق ممنوعة أو محرمة أو حرجة، و بهذا الصنيع حصلت رجاء الصانع* الطيبية الصغيرة على صيت واسع جلبته لها روايتها: "بنات الرياض" التي تدور أحداثها في إحدى الإقامات الجامعية بالرياض في السعودية ، وقد رأى رجال الدين أن رواية بنات الرياض هي "دعوة للرديلة"، وأن فيها أخطاء طباعية ولغوية ونحوية وفيها إساءات للمعتقدات الدينية كما وصفها عبد الرحمن العشماوي بأنها "خطيئة أدبية"، و بالتالي هي رواية محظورة، و رغم ذلك انتشرت هذه الرواية في الانترنت و ترجمت إلى اللغة الألمانية وحصلت على المركز الثامن في أكثر الكتب مبيعاً، كما ترجمت روايتها شركة نشر مشهورة في أمريكا إلى اللغة الإنجليزية .

على كل حال كان يمكن أن تصدر مثل هذه الرواية عن سرد ذكوري لكن ما كان لها أن تلقى النجاح نفسه، لأن النساء أدرى بخبايا أنفسهن، لذلك وجب أن يكون كل عمل أدبي يمثل إضافة إلى الموروث العربي سواء كان رجاليا أو نسائيا وخاصة نسويا، دون أن يكون خاضعا بصورة أو أخرى إلى الوافد الغربي.

إن المرأة في العصر الحديث كان لها أدب خاص بها، جعلته متنفسا، من خلاله توصل قضاياها للعالم بأسره، وتعبر فيه عن أفكارها ومعتقداتها، هذا ما

عرف بالسرد النسوي، الذي حاولت بعض الناقدات تكريسه كمصطلح في عالم الأدب.

وبالموازاة رأت بعض الناقدات منهن والكثير من المبدعات العربيات أنَّ مُصطلح الأدب النسوي نفسه جاء لتهميش المرأة وإبداعها؛ لأنَّه يفصل بينها وبين الرجل، ويكرِّس الفوارق بينهما. وبعبارة أخرى جعل هذا المصطلح الأدب النسوي كنوع لوحده، لأنه لا يرقى إلى الأدب الذي يكتبه الرجل فهو مصطلح جعل ما تكتبه المرأة حقيراً بقصد أو بدون قصد. على كُلِّ يُمكن القول: إنَّ لأدب الذي تُنتجه المرأة ثلاثة أنواع:

- أدب إنساني ...

- وأدب تُحارب به الرجل الذي يُهمِّشها ...

- وأدب تخدم به جنسها، وتُعزِّل من خلاله نفسها عن العالم الإنساني الرَّحْب..

فأي أدب أقرب إلى أنفس الناس؟ الجواب بيّن.

الهوامش :

¹ عبد الله إبراهيم موسوعة السرد العربي ج1، ط2، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 2008 ص5.

² -ينظر. عبد الله إبراهيم. أمة شعر أم سرد(مقال)جريدة الرياض. 28 مارس 2013م - العدد 16348. ص 22

³ المرجع نفسه. ص22

⁴ ينظر: سعيد يقطين: قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود و الحدود، ط1، دار الأمان، المغرب، 2012، ص 202

⁵ المرجع نفسه ص 205.

⁶ Voir .Mary Eaglton : Feminist literary theory, blackwell , cambridge .1993 .p155 .156

⁷ سعيد يقطين: قضايا الرواية العربية الجديدة. ص 206

⁸ رضا الظاهر: غرفة فرجينيا وولف، دراسة في كتابة النساء، دار المدى للثقافة و النشر، ط1، سوريا 2001. ص 10

⁹ مفيد نجم: الكتابة النسوية، اشكالية المصطلح ، مجلة نزوى عدد 42 أبريل 2005 ، ص 90.

¹⁰ يُنظر: عبد الله إبراهيم: المحاورات السردية ، ط1، منشورات الاختلاف الجزائر 2011. ص 60

¹¹ عيسى مخلوف: الجزائرية آسيا جبار.. الكاتبة التي لا تغيب (مقال) جريدة "الرياض" العدد 15350، 4 يوليو 2010.

¹² يُنظر: عبد الله إبراهيم: المحاورات السردية . ص 60

¹³ عبد الله إبراهيم، السرد النسوي ، الثقافة الأبوية، الهوية الأنثوية و الجسد، ط / 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2011، ص 217.

¹⁴ عبد الله إبراهيم: المحاورات السردية ص 60.

¹⁵ Mary Eaglton : Feminist literary theory p 151

¹⁶ عبد الله إبراهيم: السرد النسوي، الثقافة الأبوية، الهوية الأنثوية، والجسد، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت لبنان، 2011، ص 215.

¹⁷ عبد الله إبراهيم: المحاورات السردية ص 240

* رجاء بنت عبد الله الصانع ولدت سنة 1981 م في الرياض كاتبة وقاصة سعودية اشتهرت بروايتها بنات الرياض حاصلة على بكالوريوس طب أسنان من جامعة الملك سعود 2005.

